

فقه الائتماء والمواطنة .. تأصيل شرعي

لفضيلة الشَّيخ
صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونية (١)

الشيخ لم يراجع التفريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحمد ربي خير حمد وأوفاه، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله وسلم وبارك عليه وآله وصحبه ومن اهتدى بهداهم إلى يوم الدين.

أما بعد؛

أيها الإخوة الكرام من منسوبي وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد في محافظة جدة، أئمة وخطباء ودعاة ومنسوبي المكاتب التعاونية للدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات وكل من هو مهتم بالتأصيلات الشرعية للقضايا التي تحتاج إلى إيضاح ووضوح حتى نكون أكثر فاعلية وإيجابية في إنتاجنا وأعمالنا..

أيها الإخوة جميعا السلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

أولا أشكر الله جل وعلا الذي هيا لنا أسباب مثل هذه الأعمال النوعية المهمة، فمثل هذا الملتقى ليس مكرورا وليس مطروقا، موضوعه مهم ونوعي وجديد، الموضوع من حيث هو يتداول بين حين وآخر، لكن أن يهتم به بعمق لمنسوبي جهاز شرعي حكومي في المملكة العربية السعودية هذا لاشك أنه جهد نوعي لا بد من تقديره.

فكرة برنامج الانتماء والمواطنة فكرة قديمة لها عدة سنوات، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد ممثلة في وكالة الوزارة بالمساجد والدعوة اعتنت بهذا الملف كبريا وعملت فعاليات متعددة في مناطق كثيرة من المملكة في فقه الانتماء والمواطنة.

وفقه الانتماء والمواطنة يعني الفقه الشرعي لمعنى الانتماء لبلدك وآثار ذلك، ومعنى المواطنة والمواطن والوطن في الشرع تأصيلا وتفريعا.

في البداية أسجل شكري للإخوة الفضلاء في الإدارة العامة للأوقاف والمساجد والدعوة والإرشاد في محافظة جدة يمثلهم الأخ الشيخ علي بن عوضه بارك الله فيه، وفي زملائه جميعا ولسلفه ومدير فرع الوزارة في منطقة مكة المكرمة الأخ الشيخ طلال بن أحمد العقيل على اهتمامهم بهذا النوع من النشاط، ولاشك أن هذه الفاعلية يرجى منها أثر كبير.

هنا قبل أن ندخل في الموضوع نضع أسئلة:

هل هذا الموضوع مهم أو ليس بمهم؟

يعني ما وجه الحاجة إلى أننا نعمل ملتقى وأن نعمل ندوة وأن نعمل جهداً في جميع أنحاء المملكة لهذا الموضوع الانتماء والمواطنة؟

الواقع أننا لا بد أن نتحدث بوضوح وصراحة وشفافية حتى يكون الموضوع مؤثراً؛ الواقع أن الطرح الإسلامي - يعني الطرح لدى كثير من الدعاة وكثير من الحركات الإسلامية وكثير من المهتمين بالشأن الإسلامي الذين فيهم اعتدال - لم يُولوا هذا الموضوع أهمية؛ بل قالوا: إنه لا اهتمام بالوطن في الإسلام أصلاً، وإنما الاهتمام بالوطن الإسلامي الكبير، وأما الوطن الصغير فهذا أرض و تراب ولا يسوغ أن نهتم بأرض و تراب.

وهذه الفكرة مشت عليها أجيالاً في بلاد المسلمين أو بلاد من المسلمين، ونشأ عنها في تأثير اللاوعي عند المتلقي أنه لا فرق بين بلد وبلد، ولا فرق بين دولة و دولة، ولا فرق ما بين أناس و أناس، وهذا أنتج السلبية في المشاعر بأنه لا يحبُّ بلده ولا يحبُّ وطنه ولا يحبُّ عشيرته ولا يحبُّ دولته ولا يحب المحبة الشرعية المثمرة من أمر الله بحبهم في جامع الوطن.

لذلك وجدنا هناك في واقع الحال على مدى سنوات طويلة عشرين ثلاثين سنة أن هناك مشكلة عند الشباب، هذه المشكلة في حقيقتها أن الاهتمام بالوطن غير مطلوب، وصار هناك تفريط في أن أحد الاهتمامين يلغي الآخر، يقول: إن الإسلام جاء وانتشر، ولما انتشر وصار وطننا كبيراً يجب أن نهتم بالوطن الإسلامي الكبير؛ لكن لا يمكن أن نكون مهتمين بالكبير دون أن نهتم بالصغير، وعلمنا رسول الله ﷺ ذلك كما سيأتي بقوله: «اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد».

كان في بعض مناهج التعليم في المملكة العربية السعودية ما يساعد على نفي الاهتمام بالوطن الخاص، أو بوطننا أو ببلدنا؛ ولذلك تجد أن هناك مشكلة عند البعض نفسية في معنى الانتماء ومعنى المواطنة، وهذه لمسناها من حيث الواقع في كل من تأثر بالدعوة الإسلامية.

طبعاً منهج وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد منهج إيجابي عملي، لا ننشغل بالحكم على هذه الإفرازات، وعلى من كان سبب هذه.

ومن وراء هذه الفكرة؟ ومن عمل في الناس أنه ما حبب إليهم الوطن،

حصل وانتهى، هذا صار واقعا. والواقع يُغيّر بالعلم، الشيء إذا صار فيه نقص فهم، إدراك، ونقص ثقافة، ونقص تأصيل، فإنه يعالج بالتأصيل وبالعلم وبالمسائل الشرعية؛ لذلك كان لزاما أن يُطرق هذا الموضوع، حتى يكون مادة بحث لدى طلاب العلم والخطباء والأئمة ويلقونه على الناس.

الانتماء والمواطنة يعني تحفيز الشعور بالأهمية الشرعية؛ لأن يكون عندك في داخلك انتماء لهذا الوطن، لبلدك وشعورك بمعنى أنك مواطن، يعني أنك واحد من أفراد هذا الوطن، لفظان مهمان الانتماء والمواطنة.

أما الانتماء: فهو دائرة مهمة لإدخالك في مجموعة التأثير؛ ولذلك تنتبه أن بضدها تتبين الأشياء، وكما قال الشاعر:

وبضدها تتبين الأشياء

عكس الانتماء: العزلة الشعورية، وفكرة العزلة الشعورية فكرة طُرحت من بعض الحركات أو التحركات أو الجماعات الإسلامية أو بعض الفصائل للتفنير من الإيجابية في المجتمع.

فيقولون: هذا مجتمع فاسد جاهلي، والناس فيهم وفيهم وفيهم، فعش في عزلة شعورية في داخلك لست منهم؛ لكن عاملهم، لكن كُن شعورياً منعزلاً، يعني لا تشعر بانتماء لهم، انتماءك إنما هو لجماعتك الخاصة.

وهذا العزل الحركي والعزل الدعوي الذي هو في فئة قليلة متطرفة في العالم منذ عدة عقود هو الذي سبب وجود الأفكار التكفيرية والتفجيرية والغالية في شباب كثير في الأمة.

لذلك فلا تجد سلبيا من يشعر بالانتماء. الذي يعادي الوطن لا بد أن يكون عنده شعور بأنه أمة لوحده، في عزلة شعورية حتى لو خالط الناس، كل شيء مرفوض في أنواع الانتماءات إلا الانتماء الوحيد لفتته وجماعته، وهذه قضية في الغاية من الخطورة في التربية وفي الدعوة وفي التأثير.

ما من نبي إلا وأرسله الله جل وعلا بلسان قومه ليبين لهم، وفي القرآن جاء قصص الأنبياء مع أقوامهم بذكر الإخوة ﴿وَإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣]، هذه الأخوة هل هي أخوة نسب؟، لا، أخوة قبيلة؟، ابلد فيه أكثر من قبيلة، ثمود قوم تجمعوا في مكان، أخوهم يعني أخوهم في وطنهم، أخوهم في قبيلتهم أو قبائلهم.

وهذه الأخوة ذكرها الله جل وعلا فقال: ﴿أَخَاهُمْ﴾ ولم يقل: (إخوانه)، هو أخوهم، هو المتممي إليهم انتماء الأخ لإخوته. وهذا أحد عناصر وعوامل قوة التأثير في البداية، فالذي يريد أن يؤثر في قوم لا بد أن يكون منهم وفيهم. حتى الله جل وعلا منَّ على الإنسان بأنه جعل له من نفسه سكناً ﴿وَمَنْ آتَيْتَهُ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١]، فحتى الزوجة من أنفسكم، يعني منكم في انتماء واحد. والنبى عليه الصلاة والسلام في مكة جعل الصحابة يحبونها، حتى لما هاجروا إلى المدينة جاءه أحد الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، جاء إلى عائشة فذكر لها ما رأى في مكة، ثم جاء النبى عليه الصلاة والسلام قال: «كيف تركت مكة؟» قال: تركتها كذا ووصفها بوصف جميل، بأن بطحاءها بيضاء، وأن مزارعها خضراء، قال: «كفى كفى لا تحزننا». لازم نقف عند هذه الكلمة. النبى عليه الصلاة والسلام قائد الأمة انتقل من مكة إلى المدينة في هجرة شرعية فلائى معنى يحزن على شيء فارقه شرعاً؟، لأمرين:

أولاً: لأن الفطرة مغروس فيها حب الوطن.

ثانياً: لأن حب الوطن الفطري متوافق مع الشرع.

لأنه لو كان يخالف معنى الهجرة لما كان للكلام عن أحوال مكة سواء طيبة أو ليست طيبة أثر، فهي بلد عدو في ذلك الوقت، أخرجت النبى ﷺ. ولهذا جاء في الحديث الآخر بيان الحب الفطري الموجود في قلب النبى ﷺ قال لمكة، قال: «اللهم إنك أحب بلاد الله إلي، ولولا أن قومك أخرجوني منك ما خرجت»، فجعل سبب خروجه هو إخراجهم له عليه الصلاة والسلام.

فهذه مسألة فطرية موجودة في النفس، لكن يزيد عليها أمر آخر شرعي بدعاء النبى ﷺ: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حبيت إلينا مكة أو أشد»، فالنبى ﷺ لا يدعو إلى شيء غير مشروع، فلو كانت المدينة مساوية لير المدينة، ومكة مساوية لغيرها في النفس الفطرية؛ لأنه نشأ فيها، لكان الأمر لا يتطلب سؤال الله جل وعلا أن يحبب المدينة إلى نفسه، لأن سؤال الله جل وعلا بأن يحبب معناه أن هذه المحبة مطلوبة شرعاً، والنبى ﷺ لم يطلب شيئاً من أمر الدنيا، وإنما يطلب شيئاً شرعياً له أثره في الدين وأثره في الشرع، وله أثر في التشريع.

لهذا الأمر الفطري - وهو حب الوطن والانتماء إلى من يعيش معك فيه - مطلوب لأثره؛ ولذلك الأحكام الشرعية تارة تعرف بمقاصدها، وتارة تعرف بوسائلها؛ لأن القاعدة الشرعية أن الوسائل لها أحكام المقاصد، فالمقصد إذا كان مطلوباً فوسيلة المقصد مطلوبة، ومنه تفرعت القاعدة: (وسيلة الواجب واجبة، ووسيلة المستحب مستحبة). الأثر الذي يترتب عليه حبُّ الوطن أثرٌ عظيم جداً في الإنتاج، يعني وجود الانتماء مع الناس بينك وبينهم شعور بأنكم شيء واحد هذا مهمٌ جداً في نشر الشرع بقوة، لأثر في الدعوة، الأثر في الخير، الأثر في الإحسان، عظيم الأثر في البذل.

هذا الوطن لا يتصور أن هناك وطناً مكون من أرض وسما ففقط وليس فيه أحد، ولا يعقل أن يكون مراد دعاء النبي ﷺ: حببني في وطن ما فيه إلا أرض وسما، وما فيه إلا أنا، فلا شك أن هذا غير مراد؛ لأن الوطن في حقيقته هم الناس الذين أحببت الأرض لأجلهم، أو أحببت المكان لأجلهم، يعني حقيقة حب الوطن هي المواطنة، فأنت أحببت هذه البلد لما كان فيها، ولما تعرفها، أما لو كنت في مكان وحدك ليس معك أي إنسان فلن تحبه، وبالتالي صار الأثر المطلوب هو: أنه

* لا يمكن أن تتحقق الأوامر الشرعية إلا بالانتماء.

* لا يمكن أن أكون محبباً لأخي ما أحب لنفسي وأنا لا أعيش معه في نوع من الانتماء.

* لا يمكن أن أبذل للناس وأكرم الجار وأهتم به إلى سابع جار وإلى أربعين وأهتم بمن حولي، دون

أن يكون هناك شعورٌ بالانتماء الشرعي لهم.

ولهذا جاء هذا اللفظ حديثاً، يعني لفظ الانتماء ولفظ المواطنة ألفاظ جديدة؛ لكنها ألفاظ دلالتها قديمة، ومنها: «أفشوا السلام بينكم»، «أحب لأخيك ما تحب لنفسك» ولا يلزم لهذا الحب أن يكون هناك شيء، لازم يكون هناك شيء متبادل بينك وبينهم، فأخوة الإسلام جاءت وغطت على ذلك كله، وصار هناك الانتماء الكبير العظيم لإخوة الإسلام.

ولهذا جاء في الشرع وفي النصوص أنه إذا تعارض ما كان الله مع ما هو دونه فإنه يقدم ما كان الله انتماً، كما قال جل وعلا: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [التوبة: ٢٤] ولا يقدح في المشروعية أنه عند المفاضلة يُقدّم ما هو أعظم؛ لأن كثيراً من الأحكام فيها مراتب، فإذا صار هناك مرتبة دون مرتبة؛ فإن الانتقال إلى ما هو أعلى واجب.

النبي ﷺ يحب مكة لكن هناك مرتبة أعلى منها، هي أنه أمر الصحابة أن يهاجروا إلى المدينة، فالهجرة هنا مأمور بها شرعا لتحقيق أمر أكبر، ووجود التعارض لا يعني إلغاء أحد المتعارضين، ولكنه تفضيل، ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وكل من اعترض أو غالب من اعترض على هذه مشروعية حب الوطن والانتماء والمواطنة جاؤوا بآيات وأدلة التفضيل أنك ما تقدم الدين، نعم هذه مسألة شرعية واضحة؛ لكن مسألة أن لا تقدم شيئا على شيء لا يعني أن الأدنى ليس مشروعاً، لا نصلي النافلة وعلينا فريضة؛ لكن هذا لا يعني أن النافلة غير مطلوبة؟ وإرضائك لوالدتك أهم من إرضائك لزوجتك عند التعارض، لكن هذا لا يعني إن إرضاء زوجتك غير مطلوب، أليس إرضاء الزوجة من مقتضيات قوله ﷺ: «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهله»، إرضاء الزوجة من الشرع، وهناك كثير من تفاصيل الأحكام مثل هذه، لكن إذا كنت في موقف يقتضي المفاضلة فحينها يُقدّم الأفضل ويؤخر المفضول وهكذا.

فكل من اعترضوا على مسائل التأسيس اعترضوا بالمفاضلة، والمفاضلة ليست دليلاً على عدم المشروعية؛ بل هي دليل على الأفضلية عند التعارض أو عند الالتقاء.

وهذا هو الذي طُبّق في السنة، النبي ﷺ هاجر من مكة لما ضايقوه، وأمر الصحابة بالهجرة منها، وهو يحب مكة، ودعا بأن يكون حب المدينة كحب مكة، ودعاؤه عليه الصلاة والسلام دعاء عبادة. لذلك جاء في الأحكام الفقهية حكم النفي من الأرض، وجاء حكم التغريب.

النفي من الأرض كما في آية الحراية، ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣]؛ لأن نفي المرء من الوطن الذي عاش فيه عذاب، فهو جزء من العقوبة، ويدل بالدليل العكسي على أن غيره نعمة، فكون النفي عقوبة شديدة، ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خَلْفٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٣٣] ولا حظوا أن النفي من الأرض جاء ضمن مجموعة من أشد العقوبات، فوقعها الشديد دليل أنه عقوبة شديدة، يعني عذاب له لأنه نفي من بلده، والبلد محبوبة، فالنفي عنها عقوبة من أجل ما في نفسه من حب بلده.

ثانياً: التغريب، كما في قوله ﷺ: «البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام»، يعني إذا زنا البكر فعقوبته جلد مائة وتغريب عام؛ لأن التغريب عقوبة مقارنة للجلد، وهو -أي التغريب- عقوبة؛ لأنه يسلب عنه ما يحبه خَلْقَةً، مما هو مؤيد شرعا، ولولا أن للوطن قيمة في النفس لما كان التغريب عنه عقوبة.

ومن التأثير الإيجابي أن النبي عليه الصلاة والسلام آخى بين المهاجرين والأنصار، يعني جعل لكل مهاجري أخاً من الأنصار، وكان في أول الأمر مثل أخوة النسب يتقاسمون المال ويتوارثون، حتى نزل نسخ ذلك، وهذا كي يتحقق الانتماء بين هذين الوصفين الكبيرين: المهاجرين والأنصار، فتحقق الانتماء الحقيقي في المدينة، وصارت المدينة قائمة على مبدأ انتماء واحد، فصاروا كلهم واحداً في المدينة.

لا يمكن لنا أن نكون مؤثرين ونحن لا نحب بلدنا، الله جل وعلا يقول: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠]، أمر بالعلم والتعليم ونشره، وأمر بالدعوة وأمر بالخير وأمر بالتواصي بالحق وأمر بالتراحم وأمر بالعتاء وأمر وأمر وأمر، ولا يمكن أن نقوم بكل هذه الأوامر الشرعية بدون شعور بأهمية البذل للناس، فالبذل لأهل الوطن أسهل على النفس من البذل لغيرهم.

ولذلك كلُّ وطن من المسلمين يحبه أهله، وهل الأيسر في تحقيق الأمر الشرعي أن يأتي أهل مصر يؤثرون على أهل الشام، وأهل الشام يؤثرون على أهل مصر، أو مصر يؤثرون على السعودية، والسعودية يؤثرون على مصر، فقدنا جزءاً من التأثير المطلوب شرعاً، وهنا الإيجابية الشرعية والتأثير الشرعي مطلوبان فيما أمر الله جل وعلا به، وأمر به رسوله ﷺ من الأوامر الشرعية الكثيرة لا يمكن أن تحرك النفس إلا بشعور الانتماء والمواطنة.

ومن ليس عنده هذا الشعور -الانتماء لدينه، ثم الانتماء لبلده، ثم الانتماء لناسه، يخاف عليهم، يحبهم، يخاف أن يقعوا في شيء، يقول الإمام أحمد: (والله وددت أن لو الخلق أطاعوا الله وقرض جسمي بالمقاريض)، يعني قطع جسمه بالمقصات، وهذا لأنه بينه وبينهم صلة الإسلام، بينه وبينهم الانتماء العام، الذي هو في مثل: ﴿وَإِلَى تَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾ [الأعراف: ٧٣]، وهو شعور الأخوة، الذي يتولد عنه شعور الشفقة، الذي يجعله يبذل الجهد ويضحى بنفسه لأجل أن ينقي الناس من الشرور، ويفتح لهم أبواب الخير.

اليوم والحقيقة أننا عندنا مشكلة شعورية، وهذه المشكلة الشعورية في المملكة العربية السعودية عند بعض الناس، أو كثير من الناس بشكل عام ممن يخاطبهم الأئمة والخطباء ويبدلون لهم، لا يشعرون بأهمية مكة والمدينة في الأرض، أقوى قوة عندنا في المملكة العربية السعودية تواجه بها كل ضعف أمام العالم، يعني القوة السياسية، القوة الوطنية، القوة الانتمائية: فمكة الكعبة المدينة هذه أقوى، هي القوة

الباقية الدائمة، وليس هو البترول، ولا المال ولا غيرهما؛ فمكة والمدينة هما أقوى قوة لديك، هي التي تغرس انتماء الرسالة، وانتماء التأثير، وقوة الانطلاق.

لذلك لدينا في بلدنا بعد انتماء آخر لا يوجد في غيره، فإذا كان أهل مصر يحبون مصر وهم محقون في ذلك، وأهل تركيا يحبون تركيا وهم محقون، وأهل الشرق يحبون بلادهم وهم محقون في ذلك، فكيف بحال من عنده مكة والمدينة، فهذا الأثر العظيم التي تتعلق بها قلوب الكثير من أهل الأرض مليار وزيادة، ويخشونها مليارات آخر، فهل تعتقون أن الهيبة الموجودة لهذه البلاد هيبة متنوعة الأسباب ومن هذه الأسباب مكة والمدينة، ولذلك الشعور بالانتماء والشعور بالمواطنة التي نفرح ونعتز بها أكثر وأكثر، هو حبنا لبلدنا دولتنا المملكة العربية السعودية التي أعظم ما فيها مكة والكعبة المشرفة والمدينة ومسجد رسول الله ﷺ ومثواه ﷺ.

وهذا شعور يعطيك بعداً إضافياً لتفخر بانتمائك لهذا البلد الكريم، ويعطيك انتماء وشعورا بأنك يجب عليك أن تعمل وتعمل وتعمل لأحبابك وإخوانك في بلدك، وفي غيرها، فأنت في انتمائك ومواطنتك لا تحتاج إلى دليل؛ لأن معك: «اللهم حبب إلينا المدينة كما حبت إلينا مكة أو أشد».

واليوم يُعرف الشيء بما بُني عليه، رسالة مكة والمدينة بعد القرن الثاني الهجري لم تتحقق كما تحققت في عهد المملكة العربية السعودية، وهذه حقيقة تاريخية واضحة، بعد المائتي سنة الأولى بدأت الدول والدويلات والخلافات وصارت مكة والمدينة عجب العجائب، حتى ذكر ابن جبير في رحلته ذكر عجباً، مثلاً عن المدينة المنورة قال ابن جبير في رحلته في القرن السادس الهجري: (وجاء وقت صلاة الجمعة فذهبنا إلى مسجد النبي ﷺ، وأخذ أحد الغلمان يدور على الصفوف يمشي بين الصفوف ومعه مثل المخرف أو منديل يلقي الناس فيه مالا، فسألته فقال: لا يخطب الخطيب بمسجد رسول الله ﷺ حتى يعطيه الناس مالا يُرضيه، يقول: فدار فدار ثم ذهب الغلام بهذا المال فنظر إليه الخطيب، فقال: أخطب بكم وتعطوني هذا فقط، ارجع، فذهب الغلام يدور ويدور) يعني حالة مزريّة. وفي بعض وقائع التاريخ حصلت نهضات بين حين وآخر، لكن التأثير العالمي لمكة والمدينة لم يكن إلا في عهد المملكة العربية السعودية، لذلك فإن انتماءكم لبلدكم ولدولتكم انتماءً عظيم فيهِ بُعدٌ إيمانيٌّ قويٌّ قويٌّ، والأعداء شعروا بخطر هذا البُعد الإيماني والانتماء المؤثّر القوي، فأرادوا أن يوقعوا الفتنة في أهله.

وإيقاع الفتنة في أهل هذا البلد يبدأ بسلب الشعور بأهميته، ثم نشر الفوضى، ومن هنا جاءت الضرورة الشرعية في الاهتمام بإعادة بناء النفس في انتمائها، ومعنى مواطنتها لبلدها ودولتها.

الدولة في المفهوم القانوني وفي المفهوم الشرعي الدولة هي نظام، والنظام يعني القانون أو التشريع، الأرض يعيش عليها الناس، والتشريع يحكم في الناس، وحكومة تُسيّر أمرَ الناس وفق هذا القانون، هذا معنى الدولة.

فالدولة هي أرض وناس وتشريع وحكومة، يعني ولاية أمور يربطون بين هذه الثلاث: الأرض والناس والتشريع، وإذا نظرت إليها بأدنى تأمل وجدت أننا في المملكة العربية السعودية نحظى من نصيبها شرعاً بأعلى ما يمكن أن يؤصل بالنسبة للدولة كلها فمهما جاء أحد وقال: الوطن فيه وفيه وفيه، فلدينا من المبررات ما هو أكثر وأكثر وأكثر. ومن هنا تبدأ الانطلاقة الحقة، تغيير القناعات، إذا غيّر الإمام قناعته في بعض الأشياء صار تأثيره مختلفاً، وصارت غيرته أشد، وصار حرصه أكبر، قيل: (كلكم على ثغر من ثغور الإسلام، فالله الله أن يؤتى من قبله)؛ لأنه إذا نفذ العدو من واحد فقد نفذ في المجموعة فأفسد.

ونأتي للخاتمة وتلخيص الكلمة الافتتاحية التي بها نفتح هذا الملتقى «ملتقى التأصيل الشرعي لفقهِ الانتماء والمواطنة في محافظة جدة» على بركة الله بأمره وإذنه الشرعي.

ونسأل الله التوفيق للجميع، وننطلق إلى رحاب أوسع، وإلى ميدان أكبر في القناعة ثم التأثير. ولا يمكن أن نؤثر إلا بفهم هذا الموضوع، هذا الموضوع مهم، موضوع الانتماء والمواطنة مهم؛ لأنه يشعرك بانتمائك بأنك أنت والآخرين شيء واحد، فإذا رأيت أحداً يقول: أنا شيء مختلف، فهنا تبدأ الأسئلة ويبدأ التأثير السلبي، الناس في الوطن الواحد شيء واحد، تجمعهم المحبة في الله، والأخوة الخاصة والعامة، ويجمعهم أنهم حُرَّاس لمكة والمدينة، حُرَّاس للمقدسات.

يوماً من الأيام - نسأل الله أن لا نراه وأن لا يأتيكم مجرد أوهام - قد ترى أن الأعداء يريدون أن يُفَرِّقوا بين الناس في هذا البلد، وأن يشقوا عصاه، وأن يفرقوهم جماعات، وأن يحيوا الثارات فيما بينهم.

مصر تقول: الانتماء لمصر. والمغرب تقول: الانتماء للمغرب، والعراق تقول: للعراق، والهند تقول: للهند.

لكن جزيرة العرب ما اجتمعت، يعني لا يمكن أن تسميها باسم يضم أراضيها؛ لأنها ما اجتمعت في التاريخ، لا يمكن أن تسميهم مثل ما نقول: (المصريين) وتقول: الجزيريين، ولا أن نقول: (أهل

الجزيرة)، فهذه مغالطة تاريخية كبيرة، فأهل هذه البلاد وحَدَّ بينها وبين أهلها الله جل جلاله: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]، وأجرى هذا الخير على يدي مؤسس المملكة العربية السعودية الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود رحمه الله رحمة واسعة، جمع هذا الشمل وألغى الفروقات، وجعل الناس ينتمون إلى شيء واحد.

هذا التجمع اسمه (السعودية)؛ لأنه لم تجمعه الأرض فقط، مثل مصر والعراق، فمصر والعراق تعاقبت عليهما دول كثيرة، لكن بقيت مصر باسمها مصر، والعراق باسمه العراق، والهند باسمه الهند. لكن اجتماع لم يكن قبل، وإنما صار باسم (المملكة العربية السعودية) نسبة إلى مَنْ جعله الله سببا في ذلك، جزاه الله عنا خير جزاء.

لذلك الفقه العام نلخص ما قلت في خمس نقاط:

النقطة الأولى: أن هذا الموضوع مهم شرعي باعتباره في نفسه وباعتبار آثاره.

الثانية: أنه صار هناك عدة رؤى لأناس ينكرون هذا المبدأ، ويرون أنه لا مبدأ في الانتماء، ولا دليل شرعي، ويرون العزلة عن الناس، وأنه لا حقيقة للانتماء، وهذا أمر خطأ يجب أن نحسب له حسابًا، وأن ننتبه لهذا لمن يتأثر بهذا الفكر.

الثالثة: أن رسالة الخطيب في خطبته ورسالة الإمام في مسجده والداعي في دعوته أو في مكتبه هو تأصيل المعنى الشرعي؛ ذلك لأنه لا تتم الأمور الشرعية من الدعوة والخير والإصلاح والبذل والعطاء وحسن الجوار، وأن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، أمور كثيرة لا تأتي إلا بوجود الانتماء الإسلامي، والانتماء الوطني الخاص.

الرابعة: أن المملكة العربية السعودية هي ذات الولاية على مكة والمدينة، فحب مكة والمدينة الشرعي معناه حب هذا الكيان العظيم الذي أثار برسالة مكة والمدينة في العالم كله.

الخامسة: أن الأدلة تنوعت إلى: دليل من القرآن، دليل من السنة، ودليل من الفطرة، ودليل من السيرة النبوية، ودليل من القواعد الشرعية، من التفصيلات الفقهية كما ذكرنا في النفي والتغريب وأشياء أخرى في مثل ذلك.

ختامًا أشكر الإخوة المنظمين مرة أخرى ولكل من أسهم في نجاح هذا اللقاء، ونجاح هذا الملتقى وشكرا أيضا لجامعة الملك عبد العزيز على استضافتها لهذا الملتقى وهي مكان التأصيل العلمي للعلوم

كافة، والشكر أيضا لجميع الجهات الحكومية المساندة لذلك مدنية وأمنية، نسأل الله للجميع التوفيق والسداد خيرا على ما قدموا وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.